﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

بعد أن حذر الحق سبحانه وتعالى اليهود من أن يبيعوا دينهم بثمن قليل وهو المال أو النفوذ الدنيوى . قال تعالى : « ولا تلبسوا الحق بالباطل » مادة تلبس . مأخوذة من اللباس الذى نرتديه . واللبس هو التغطية أو التعمية بأن نخفى الحق ولا نظهره . فاللباس تغليف للجسم يستره فلا يبين تفصيلاته . .

والحق هو القضية الثابتة المقدرة التى لا تتغير . فلنفرض أننا شهدنا شيئا يقع . ثم روى كل منا ما حدث . اذا كنا صادقين لن يكون حديثنا الا مطابقا للحقيقة . ولكن اذا كان هناك من يحاول تغيير الحقيقة فيكون لكل منا رواية . وهكذا فالحق ثابت لا يتغير .

فى التوراة آيات لم يحرفها اليهود ..وآيات محرفة . كل الآيات التى تتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفه ..وأنه النبى الخاتم ..حرفها اليهود . والآيات التى لا تتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحرفوها . . فكأنهم خلطوا الحق بالباطل . . ما الذى جعلهم يدخلون الباطل ويحاولون اخفاء الحقائق ؟ المصلحة الأولى : ليشتروا بآيات الله ثمنا قليلا . . والباطل هو ما لا واقع له . ولذلك فان أبواب الباطل متعددة .

وباب الحق واحد . فالله سبحانه وتعالى يريد أن يبلغنا أن اليهود قد وضعوا فى التوراة باطلا لم يأمر به الله . وكتموا الحقيقة عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن هل فعلوا ذلك عن طريق الخطأ أو السهو أو النسيان ؟ لا بل فعلوه وهم

يعلمون . نأتى مثلا الى قول الحق تبارك وتعالى لليهود :

﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة البقرة)

وحطة أى حط عنا يارب ذنوبنا . يأتى اليهود ويغيرون قول الله . فبدلا من أن يقولوا حطة . يقولوا حنطة . من يسمع هذا اللفظ قد لا يتنبه ويعتقد أنهم قالوا ما أمرهم الله به . مع أن الواقع أنهم حرفوه . ولذلك عندما كانوا يأتون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون : راعنا ليا بألسنتهم . وكان المفروض أن يقولوا راعينا . . ولكنهم قالوا راعنا من الرعونة . . والله تعالى نبه المؤمنين برسوله صلى الله عليه وسلم ألا يقولوا مثلهم . فقال جل جلاله : « لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا » .

أى اتركوا هذه الكلمة نهائيا ، هذا لبس الحق بالباطل . اذن فاليهود ألبسوا الحق بالباطل . والانسان لا يلبس الحق بالباطل . . إلا اذا كان لا يستطيع مواجهة الحق . لأن عدم القدرة على مواجهة الحق ضعف نَفِرٌّ منه الى الباطل ، لأن الحق يتعب صاحبه .. والانسان لا يستطيع أن يَحْمل نفسه على الحق .

وقوله تعالى : « وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » أى أنهم يفعلون ذلك عن عمد وليس عن جهل . فقد يكتم الانسان حقا وهو لا يعلم أنه الحق.ولكن اذا كنت تعلمه فتلك هى النكبة لأنك تخفيه عامدا متعمدا . أو وأنتم تعلمون . قد يكون معناها أن اليهود ـ وهم أهل كتاب ـ يعلمون ما سيصيبهم فى الآخرة من العذاب الأليم .. بسبب اخفائهم الحق . فهم لا يجهلون ماذا سيحدث فى الآخرة . ولكنهم يقدمون على عملهم مع علمهم أنه خطأ فيكون العذاب حقا .



﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

اقامة الصلاة معروفة . وهى تبدأ بالتكبير وتختم بالتسليم . بشرائطها من عناصر القيام والركوع والسجود . ولكن الحق يقول « وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » إنما انه يريد منهم أن ينضموا الى موكب الايمان الجامع لأن صلاتهم لم يكن فيها ركوع . اذن فهو يريدهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . ولا يظنوا أن ايمانهم بموسى عليه السلام يعفيهم من أن يكونوا خاضعين لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . ويقولون ديننا كافينا . انما جاء الاسلام لمن لا دين له وهم الكفار والمشركون . . فيقول لهم : « اركعوا مع الراكعين » .

ان الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم الى أن صلاتهم لن تقبل منهم إلا أن يكون فيها ركوع . وصلاة اليهود ليس فيها ركوع . . وان كان فيها سجود ، وفى كلتا الحالتين فإن الحق سبحانه وتعالى يلفتهم الى ضرورة الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم .

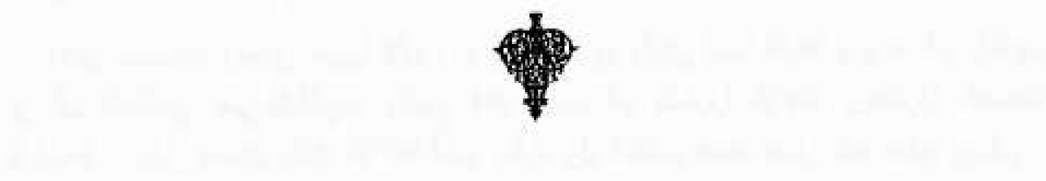
الحق سبحانه وتعالى حينما قال : (ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) يريد أن يلفتهم الى أن العكس هو المطلوب وانهم كان يجب أن يشتروا الايمان ويختاروا الصفقة الرابحة . ولن يحدث ذلك الا اذا آمنوا بالرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم . . فهذا هو الطريق الوحيد لرضا الله سبحانه وتعالى .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يهدم تكبرهم على الدين الجديد فأمرهم بالصلاة كما يصلى المسلمون . وبالزكاة كما يزكى المسلمون . فلا يعتقدون أن ايمانهم بموسى والتوراة سيقبل منهم بعد أن جاء الرسول الجديد الذى أمروا ان يؤمنوا به . بل ان ايمانهم بموسى والتوراة . لو كانوا مؤمنين بهما حقا . . يستوجب هذا الايمان عليهم أن

يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . لأن التوراة تأمرهم بذلك . فكأن عدم ايمانهم بمحمد صلى الله عليه سلم كفر بالتوراة ونقض لتعاليمها .

والصلاة كما قلنا .. استحضار العبد وقفته بين يدى ربه . وحينما يقف العبد بين يدى الله .. لابد أن يزول كل ما فى نفسه من كبرياء . ويدخل بدلا منه الخشوع والخضوع والذلة لله . والمتكبر غافل عن رؤية ربه الذى يقف أمامه . انما عدم ايمانهم بهذا النبى . والوقوف بين يدى الله للصلاة كما يجب ان تؤدى ، وكما فرضها الله تعالى من فوق سبع سماوات . انما هو رفض للخضوع لأوامر الله .

وبعد ذلك تأتى الزكاة . لأن العبد المؤمن . لابد أن يوجه حركة حياته الى عمل نافع يتسع له ولمن لا يقدر على الحركة فى الحياة . والله سبحانه وتعالى حينما يطالبنا بالسعى فى الارض لا يطالبنا أن يكون ذلك على قدر احتياجاتنا فقط ، بل يطالبنا أن يكون تحركنا اكثر من حاجة حياتنا . حتى يتسع هذا التحرك ليشمل حياة غير القادر على حركة الحياة . فيتسع المجتمع للجميع . ويزول منه الحقد والحسد ، وتصفى النفوس . .



﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

بعد أن لفت الله انظار اليهود . الى ان عدم ايمانهم بالاسلام هو كفر بالتوراة . . لأن تعاليم التوراة تأمرهم أن يؤمنوا بالرسول الجديد . وقد أعطوا أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وزمنه فى التوراة . وأمروا أن يؤمنوا به . قال تبارك وتعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » لقد كان اليهود يبشرون بمجىء رسول جديد . ويعلنون أنهم سيؤمنون به . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن من قومهم كفروا به . لأنهم كانوا يريدون أن تكون السطوة لهم . بأن يأتى الرسول الجديد منهم . فلما جاء من العرب .. عرفوا أن سطوتهم ستنزول . وأن سيادتهم الاقتصادية ستنتهى . فكفروا بالرسول وبرسالته .

ولابد أن ننبه الى أنه اذا كانت هذه الآيات قد نزلت فى اليهود . فليس معناها أنها تنطبق عليهم وحدهم . بل هى تنطبق على أهل الكتاب جميعا . وغير المؤمنين . فالعبرة ليست بخصوص الموضوع . ولكن العبرة بعموم السبب .

ان الكلام منطبق هنا حتى على المسلمين الذين يشترون بآيات الله ثمنا قليلا وهؤلاء هم خطباء الفتنة الذين رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . تقرض شفاهم بمقارض من نار . فسأل : من هؤلاء يا جبريل : فقال خطباء الفتنة . انهم الذين يزينون لكل ظالم ظلمه . ويجعلون دين الله فى خدمة أهواء البشر . وكان الأصل أن تخضع أهواء البشر لدين الله . وهؤلاء هم الذين يحاولون ـ تحت شعار التجديد ـ أن يجعلوا للناس حجة فى أن يتحللوا من منهج الله . فهم يبررون ما يقع . ولا يتدبرون حساب الآخرة .

إن علماء الدين الذين يحملون منهج الله ليس من عملهم تبرير ما يقع من غيرهم . ومنهج الله لا يمكن أن يخضع أبدا لأهواء البشر . وعلى الذين يفعلون ذلك أن يتوبوا ويرجعوا الى الله . ويحاولوا استدراك ما وقع منهم . لأن الرجوع الى الحق خير من التمادى فى الباطل .

وقول الحق سبحانه وتعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » يعطينا منهجا آخر من مناهج الدعاة . لأن الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحمل منهج الله .. يريد أن يخرج من لا يؤمن من حركة الباطل التى ألفها . واخراج غير المؤمن من حركة الباطل أمر شاق على نفسه . لأنه خروج عن الذى اعتاده . وبُعد عما ألفه . واعتراف أنه كان على باطل لذلك فهو يكون مفتوح العينين على من بين له طريق الايمان ليرى هل يطبق ذلك على نفسه أم لا ؟ أيطبق الناهى عن المنكر ما يقوله ؟ فاذا طبقه عرف أنه صادق فى الدعوة . واذا لم يطبقه كان ذلك عذرا ليعود الى الباطل الذى كان يسيطر على حركة حياته .

إن الدين كلمة تقال . وسلوك يفعل . فاذا انفصلت الكلمة عن السلوك ضاعت الدعوة . فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الصف)

لماذا . . ؟ لأن من يراك تفعل ما تنهاه عنه يعرف أنك مخادع وغشاش . وما لم ترتضه أنت كسلوك لنفسك . لا يمكن أن تبشر به غيرك . لذلك نقرأ فى القرآن الكريم :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الاحزاب)

فمنهج الدين وحده لا يكفي .. الا بالتطبيق . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأمر أصحابه بأمر الا كان أسبقهم اليه ، فكان المسلمون يأخذون عنه القدوة قولا وعملا ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه . حين يريد أن يقنن أمرا في الاسلام يأتي بأهله وأقاربه ويقول لهم : لقد بدا لي أن آمر بكذا وكذا ، والذي نفسي بيده من خالف منكم لأجعلنه نكالا للمسلمين . وكان عمر بن الخطاب بهذا يقفل أبواب الفتنة ، لأنه يعلم من أين تأتي . .

وفي الدعوة الاسلامية .. لابد أن يكون العلماء قدوة لينصلح أمر الناس . ففي كل علوم الدنيا القدوة ليست مطلوبة . الا في الدين . فأنت اذا ذُكِرَ لك عالم كيمياء بارع . وقيل لك أنه يتناول الخمر . أو يفعل كذا . تقول مالي وسلوكه . أنا آخذ عنه علم الكيمياء لأنه بارع في ذلك . ولكن لا شأن لي بسلوكه . وكذلك كل علماء الأرض . ماعدا عالم الدين . فاذا كان هناك عالم يبصرك بالطريق المستقيم . وتتلقى عنه علوم دينك ثم بعد ذلك تعرف أنه يشرب الخمر أو يسرق . أتستمع له ؟ أبدا . انه يهبط من نظرك في الحال . ولا تحب أن تسمعه . ولا تجلس في مجلسه . مهما كان علمه . فستقول له كفاك دجلا . .

وهكذا فان عالم الدين لابد أن يكون قدوة . فلا ينهى عن منكر ويفعله . أو يأمر بمعروف وهو لا ينفذه . فالناس كلهم مفتحة اعينهم لما يصنع . والاسلام قبل أن ينتشر بالمنهج العلمي . . انتشر بالمنهج السلوكي . وأكبر عدد من المسلمين اعتنق هذا الدين من أسوة سلوكية قادته اليه . فالذين نشروا الاسلام في الصين.. كان أغلبهم من التجار الذين تخلقوا بأخلاق الاسلام . فجذبوا حولهم الكثيرين . فاعتنقوا الاسلام . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

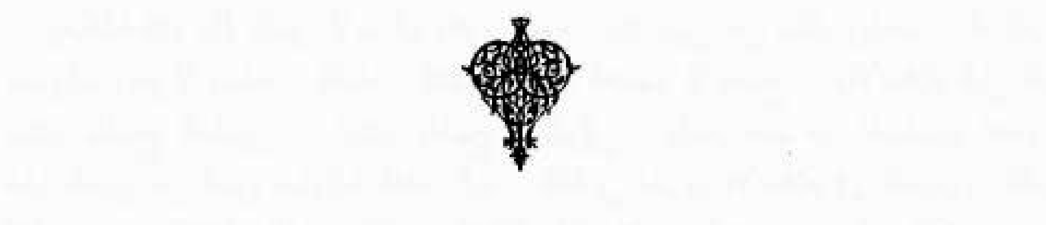
﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

فالشرط الأول هو الدعوة الى الله . والشرط الثاني العمل الصالح . وقوله « انني من المسلمين » لم ينسب الفضل لنفسه أو لذاته . ولكنه نسب الفضل الى الاسلام .
ولكن قولوا لي : أي فائدة أن نقول أننا مسلمون ونعمل بعمل غير المسلمين ؟

اذن فقوله تعالى : « اتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » يذكر الله بأن اليهود يقولون مالا يفعلون . ولو كانوا يؤمنون حقا بالتوراة لآمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالاسلام . لان ذلك أمر فى التوراة . ولكنهم نسوا أنفسهم . فهم أول مخالف للتوراة . لأنهم لم يتبعوها .. وهم يتلون كتابهم الذى يأمرهم بالايمان الجديد .

ومع أنهم متأكدون من صدق رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . الا أنهم لا يؤمنون . ولو كان عندهم ذرة من العقل لآمنوا بما يطلبه منهم كتابهم الذى يتلونه . ولكنهم لا يفكرون بعقولهم ، وانما يريدون علوا فى الأرض . والآية ـ كما قلنا ـ لا تنطبق على اليهود وحدهم . بل على كل من يسلك هذا السلوك . .



﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى أن الايمان قدوة . وبعد أن لفتنا الى أن التوراة تطالب اليهود . بأن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام . يطلب الله سبحانه وتعالى الاستعانة بالصبر والصلاة . ومعنى الاستعانة بالصبر أن هناك أحداثا شاقة ستقع . وأن المسألة لن تكون سهلة . بل تحتاج الى جهد . فالصبر معناه حمل النفس على أمر صعب . وهم ماداموا قد تعودوا على شراء آيات الله بثمن قليل .. لأنهم قلبوا الصفقة . فجعلوا آيات الله ثمنا لمتع الدنيا . واشتروا بها متعهم وملذاتهم . وبعد أن تعودوا على الربا وغيره من وسائل الكسب الحرام . لابد أن يستعينوا بالصبر اذا أرادوا العودة الى طريق الايمان .

وكما قلنا فإن المسألة ليست بخصوصية الموضوع ولكن بعموم السبب . فانها موجهة للجميع . فكل مؤمن يدخل منهج الايمان محتاج الى الاستعانة بالصبر ليحمل نفسه على مشقة المنهج وتكاليفه . وليمنع نفسه عن الشهوات التى حرمها الله سبحانه وتعالى .

والصبر فى الآية الكريمة فسره بعض العلماء بأنه الصيام ، فكأن الله تعالى يأمرهم أن يجوعوا ويصبروا على ألم الجوع . ومشقة الايمان والصلاة كما قلنا خشوع وخضوع وذلة لله .. تنهى استكبارهم بأن يؤمنوا بدين لم ينزل على أحد من احبار اليهود . والحق سبحانه وتعالى يقول : « وانها لكبيرة الا على الخاشعين »

ويطلب الحق فى قوله : « واستعينوا بالصبر والصلاة » الاستعانة بشيئين هما الصبر

والصلاة . وكان سياق الآية يقتضى أن يقال : « وانهما » لكن القرآن قال : « وانها لكبيرة » فهل المقصود واحدة منهما . الصلاة فقط . أم الصبر ؟

نقول انه عندما يأتى أمران منضمان الى بعضهما لا تستقيم الامور الا بهما معا .. يكونان علاجا واحدا . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فقال يرضوه ولم يقل يرضوها . التفسير السابق نفسه نفهمه : ليس لله حق ولرسوله حق . ولكن الله ورسوله يلتقيان على حق واحد . وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾

(من الآية ١١ سورة الجمعة)

وكان المفروض أن يقال اليهما . ولكن التجارة واللهو لهما عمل واحد . هو شغل المؤمنين عن العبادة والذكر : « واستيعنوا بالصبر والصلاة » لأن العلاج فى الصبر مع الصلاة . والصبر كبير أن تتحمله النفس . وكذلك الصلاة . لأنهما يأخذان من حركة حياة الانسان . والصبر هنا مطلوب ليصبروا على ما يمتنعون عنه من نعيم الدنيا وزخرفها . والصلاة تحارب الاستكبار فى النفس . فكأن الوصفة الايمانية لا تتجزأ . فلا يتم الصبر بلا صلاة ، ولا تتقن الصلاة الا بالصبر .

وقوله تعالى : (إلا على الخاشعين) . . ما معنى الخشوع ؟ الخشوع هو الخضوع لمن ترى أنه فوقك بلا منازع . فالناس يتفاوتون فى القيم والمواهب . وكل واحد يحاول أن يفاخر بعلوه ومواهبه . ويقول : أنا خير من فلان . أو أنت خير من فلان . اذن فمن الممكن أن يستكبر الانسان بما عنده . ولكن الانسان يخضع لمن كانت له حاجة عنده . لأنه لو تكبر عليه أتعبه فى دنياه . ولذلك أعطى الله سبحانه وتعالى للناس المواهب على الشيوع والخشوع على الشيوع . فكل انسان منا محتاج للآخر . هذا خشوع على الشيوع . وكل انسان منا مميز بما لا يقدر عليه غيره . هذه مواهب

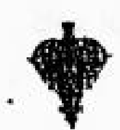
على الشيوع . هذا فى البشر ، أما بالنسبة لله سبحانه فإنه خشوع لمن خلق ووهب وأوجد .

والخشوع يجعل الانسان يستحضر عظمة الحق سبحانه ويعرف ضآلة قيمته أمام الحق سبحانه وتعالى ومدى عجزه أمام خالق هذا الكون . ويعلم أن كل ما عنده يمكن أن يذهب به الله تعالى فى لحظة . . ذلك أننا نعيش فى عالم الأغيار . ولذلك فلنخضع للذى لا يتغير . لأن كل ما يحصل عليه الانسان هو من الله وليس من ذاته . والذين يغترون بوجود الأسباب نقول لهم : اعبدوا واخشعوا لواهب الأسباب وخالقها . لأن الأسباب لا تعمل بذاتها . والله سبحانه وتعالى يجعل الأيام دولا . . أى متداولة بين الناس . انسان يفاخر بقوته . يأتى من هو أقوى منه فيهزمه . انسان يفاخر بماله . يضيع هذا المال فى لحظة . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولذلك لابد أن نفهم . أن الانسان الذى يستعلى بالاسباب سيأتى وقت لا تعطيه الأسباب . فالانسان اذا بلغ فى عينه وأعين الناس مرتبة الكمال . اغتر بنفسه . نقول له : لا تغتر بكمالات نفسك . فإن كانت موجودة الآن . فستتغير غدا . . فالخشوع لا يكون الا لله . والحق سبحانه وتعالى يقول : « وانها لكبيرة إلا على الخاشعين » من هم الخاشعون ؟ الخاشع هو الطائع لله . الممتنع عن المحرمات . الصابر على الأقدار . الذى يعلم يقينا داخل نفسه أن الأمر لله وحده . وليس لأى قوة أخرى . . فيخشع لمن خلقه وخلق هذا الكون له .



﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

بعد ان أوضح لنا الحق سبحانه وتعالى ان الصبر والصلاة كبيرة إلا على كل من خشع قلبه لله . فهو يقبل عليها بحب وايمان ورغبة . أراد ان يعرفنا من هم الخاشعون . فقال جل جلاله : (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) .

ما هو الظن ؟ سبق ان تحدثنا عن النسب . وقلنا هناك نسبة أنا جازم بها والواقع يصدقها . عندما أقول مثلا : محمد مجتهد . فاذا كان هناك شخص اسمه محمد ومجتهد . أكون قد جزمت بواقع . فهذه نسبة مجزوم بها بشرط ان أستطيع أن أدلل على صدق ما أقول . فإذا كنت جازما بالنسبة على صدق ما أقول.. فهذا تقليد . مثلما يقول ابنك البالغ من العمر ست سنوات مثلا : لا إله إلا الله محمد رسول الله . ولكن عقله الصغير لا يستطيع ان يدلل على ذلك . وانما هو يقلد أباه أو مدرسيه . .

فاذا كنت جازما بالشيء وهو ليس له وجود فى الواقع . فهذا هو الجهل . والجاهل شر من الأمى . لأن الجاهل مؤمن بقضية لا واقع لها . ويدافع عنها . أما الأمى .. فهو لا يعلم . ومتى علم فانه يؤمن . ولذلك لابد بالنسبة للجاهل ان تخرج الباطل من قلبه أولا . ليدخل الحق . واذا كانت القضية غير مجزوم بها ومتساوية فى النفى والوجود فإن ذلك يكون شكا . فإن رجحت إحدى الكفتين على الاخرى يكون ذلك ظنا . والحق سبحانه وتعالى يقول : « الذين يظنون » ولم يقل : الذين تيقنوا انهم ملاقوا ربهم . . لماذا لم يستخدم الحق تعالى لفظ اليقين وأبدله بالظن ؟ لان مجرد الظن انك ملاق الله سبحانه وتعالى .. كاف ان يجعلك تلتزم بالمنهج . فما بالك اذا كنت متيقنا . فمجرد الظن يكفى . .

واذا أردنا ان نضرب لذلك مثلا ـ ولله المثل الأعلى ـ نقول : هب انك سائر فى طريق . وجاء شخص يخبرك ان هذا الطريق فيه لصوص وقطاع طرق . فمجرد

هذا الكلام يجعلك لا تمشى فى هذا الطريق إلا اذا كنت مسلحا ومعك شخص أو اثنان . فأنت تفعل ذلك للاحتياط . اذن فمجرد الظن دفعنا للاحتياط . . اذن فقوله تعالى : « يظنون انهم ملاقوا ربهم » فمجرد ان القضية راجحة . هذا يكفى لاتباع منهج الله . فتقى نفسك من عذاب عظيم .

ويقول المعرّى فى آخر حياته :

زعم المنجّم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلتُ اليكما
ان صحّ قولكما فلسْت بخاسرٍ أو صحّ قولى فالخسارُ عليكما

فكل مكذب بالآخرة خاسر . والنفس البشرية لابد ان تحتاط للقاء الله . وان تعترف ان هناك حشرًا وتعمل لذلك .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون » والرجوع الى الله سبحانه وتعالى أمر يقينى . فمادمت قد جئت الى الدنيا مخلوقا من الله فأنت ـ لا محالة ـ سترجع اليه . وهذا اليوم يجب أن نحتاط له . حيطة كبرى . وان نترقبه . لانه يوم عظيم . . والحق سبحانه يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الحج)

ويقول جل جلاله :

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة المزمل)

اذا كان هذا حالنا يوم القيامة ، فكيف لا يكفى مجرد الظن لان نتمسك بمنهج الله . ونحن نحتاط لأحداث دنيوية لا تساوى شيئا بالنسبة لأهوال يوم القيامة . ان الظن هنا بأننا سنلاقى الله تعالى يكفى لان نعمل له ألف حساب .

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾

يدعى بعض الناس ان هناك تكرارا . للآيات السبع التى سبق فيها تذكير بنى اسرائيل . نقول : لا.لم تتكرر هذه الآيات .. وهى قوله تعالى :

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦﴾

(سورة البقرة)

هذه الآيات السبع كلها تذكر بنى اسرائيل . برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والذى جاء وصف صفاته وزمنه فى التوراة ولتذكيرهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم . هو نعمة اليهم والى الناس جميعا . واذا كان الله قد فضل بنى اسرائيل بأن أرسل اليهم رسلا . فليس معنى ذلك ان ينكروا نعمة الله عليهم بالرسول

الخاتم . وبما ان أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرت فى التوراة وطلب منهم ان يؤمنوا به وينصروه فان عدم ايمانهم به هو كفر بالتوراة . كما ان الانجيل بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم وطلب منهم ان يؤمنوا به . فعدم ايمانهم به كفر بالانجيل .

وقوله تعالى : « اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم » أى اذكروا انى جعلت فى كتابكم ما يثبت صدق محمد صلى الله عليه وسلم فى نبوته . والمعنى اذكروا نعمتى بأنى فضلتكم على العالمين ممن عاصروكم وقت نزول رسالة موسى . وجعلت منكم الأنبياء .

ومادام الحق سبحانه وتعالى .. قد فضلهم على العالمين .. فكيف يمّن عليهم ؟ نقول المّن هنا لشدة النكاية بهم . فالله سبحانه وتعالى . لشدة معصيتهم وكفرهم جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت .
واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فالله سبحانه وتعالى يبين لنا كيف كفر بنوا اسرائيل بأنبيائهم وقتلوهم . رغم ان الله تعالى أعطاهم خيرا كثيرا .. لكنهم نكثوا العهد .. فاستحقوا العذاب . فهم لم

يجعلوا نعمة الله عليهم سببا فى اخلاصهم والايمان به سبحانه وتصديق منهجه . وتصديق الرسول الخاتم الذى ذكر عندهم فى التوراة . كان يجب ان يؤمنوا بالله وان يذكروا نعمه الكثيرة التى تفضل بها عليهم .

والحق يريد ان يلفتنا الى انه مادام قد أنعم عليهم .. فلا يظنون انهم غير مطالبين بالايمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . انما كان لابد ان يفهموا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ليصحح لهم كتابهم . ويوضح لهم الطريق الصحيح . . فكان يجب عليهم ان ينصروه . والنعمة لا يمكن ان تستمر مع الكفر بها . وحتى لا نظن ان الله سبحانه وتعالى قد قسا عليهم بأن جعلهم أمما متفرقة فى الأرض كلها . ثم بعد ذلك يجمعون فى وطن واحد ليقتلوا . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الأسراء)

أى أرض تلك التى طلب الله سبحانه وتعالى من بنى اسرائيل ان يسكنوها ؟ مادام الحق سبحانه وتعالى قال : « اسكنوا الارض » فهى الأرض كل الأرض . وهل تكون الأرض كلها وطنا لليهود . طبعا لا . ولكن الحق سبحانه كتب عليهم ان يتفرقوا فى الأرض . فلا تكون لهم دولة الا عندما يشاء الله ان يجمعهم فى مكان واحد . ثم يسلط عليهم عباده المؤمنين . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

هذه هى المرة الأولى التى انتصر فيها المسلمون على اليهود . يقول الحق سبحانه

وتعالى . « ثم رددنا لكم الكرة عليهم » ومادام الحق سبحانه وتعالى قال عليهم فهى على المسلمين . لأنهم هم الذين انتصروا على اليهود . وقوله تعالى : « وأمددناكم بأموال وبنين » معناها انهم ينتصرون على المسلمين وهذا ما هو حادث الآن ، وما شاهدناه وما نشاهده فى الفترة الأخيرة . أى ان المدد والقوة تأتيهم من الخارج وليس من ذاتهم .

ونحن نرى ان اسرائيل قائمة على جلب المهاجرين اليهود من الدول الأخرى . وجلب الأموال والمساعدات من الدول الأخرى ايضا.أى أن كل هذا يأتيهم بمدد من الخارج . واسرائيل لا تستطيع ان تعيش الا بالمهاجرين اليها . وبالمعونات التى تأتيها . فالمدد لابد أن يأتى من الخارج . اذا كانت هناك معركة وطلب قائد المدد .. فمعناه أنه يريد رجالا يأتونه من خارج أرض المعركة ليصبحوا مددا وقوة لهذا الجيش . وقوله تعالى : « وجعلناكم أكثر نفيرا » النفير هو الصوت العالى الذى يجذب الانتباه . ونحن نرى الآن ان اسرائيل تسيطر على وسائل الاعلام والدعاية فى العالم . وان صوتها عال ومسموع . . ويقول الحق سبحانه وتعالى : « فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » . . ومعنى هذا أن المسجد الأقصى سيضيع من المسلمين ويصبح تحت حكم اليهود فيأتى المسلمون ويحاربونهم ويدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ويقول الله تعالى : « فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا » واللفيف هو الجمع غير المتجانس . الذى يتنافر مع نفسه ومع من حوله . وبما ان الله سبحانه وتعالى قد قضى ان يحدث قتال بين اليهود وبين المسلمين .. يستعيد فيه المسلمون المسجد الأقصى . فكان لابد ان يجمعهم فى مكان واحد . لانهم لو بقوا كجاليات متفرقة فى كل دول العالم ومعزولة عن المجتمعات التى يعيشون فيها لاقتضى ذلك ان يحارب المسلمون العالم كله . ولكن الله سبحانه وتعالى سيأتى بهم من كل دولة الى المكان الذى فيه بيت المقدس حتى يمكن ان يحاربهم المسلمون ، وان يدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة .

فالحق سبحانه وتعالى يذكر بنى اسرائيل بنعمه عليهم . وبمعاصيهم وكفرهم حتى لا يقول أحد إن الله سبحانه كان قاسيا عليهم لأنهم هم الذين كفروا . وهم الذين عصوا وأفسدوا فى الأرض . فاستحقوا هذا العقاب من الله سبحانه وتعالى .

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا
شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله تعالى : « واتقوا يوما » يذكرهم بهذا اليوم . وهو يوم القيامة الذى لا ينفع الانسان فيه إلا عمله . ويطلب الحق سبحانه وتعالى منهم ان يجعلوا بينهم وبين صفات الجلال لله تعالى فى ذلك اليوم وقاية .

ان هناك آية أخرى تقول :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهذه الآية وردت مرتين . وصدر الآيتين متفق . ولكن الآية الأولى تقول : « ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » والآية الثانية : « ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون » هل هذا تكرار ؟ نقول لا . والمسألة تحتاج الى فهم . فالآيتان متفقتان فى مطلعهما : فى قوله تعالى : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا » .

ففى الآية الأولى قدم الشفاعة وقال : لا يقبل . والثانية أخر الشفاعة وقال لا تنفع . الشفاعة فى الآية الأولى مقدمة . والعدل متأخر ، وفى الآية الثانية العدل مقدم والشفاعة مؤخرة . . وفى الآية الأولى لا يقبل منها شفاعة . وفى الآية الثانية .. لا تنفعها شفاعة.والمقصود بقوله تعالى : « اتقوا يوما » هو يوم القيامة الذى قال عنه سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الانفطار)

وقوله تعالى :

« لا تجزى نفس عن نفس شيئا » كم نفسا هنا ؟ انهما اثنتان . نفس عن نفس . هناك نفس أولى ونفس ثانية . فما هى النفس الأولى ؟ النفس الأولى هى الجازية . والنفس الثانية . . هى المجزى عنها . . ومادام هناك نفسان فقوله تعالى : « لا تقبل منها شفاعة » هل من النفس الأولى أو الثانية ؟

اذا نظرت الى المعنى فالمعنى انه سيأتى انسان صالح فى يوم القيامة ويقول يارب أنا سأجزى عن فلان أو أغنى عن فلان أو أقضى حق فلان . النفس الأولى أى النفس الجازية تحاول ان تتحمل عن النفس المجزى عنها .

ولكى نقرب المعنى ولله المثل الأعلى نفترض ان حاكما غضب على أحد من الناس وقرر ان ينتقم منه أبشع انتقام . يأتى صديق لهذا الحاكم ويحاول ان يجزى عن المغضوب عليه . فبما لهذا الرجل من منزله عند الحاكم يحاول ان يشفع للطرف الثالث . وفى هذه الحالة اما ان يقبل شفاعته أو لا يقبلها . فاذا لم يقبل شفاعته فانه سيقول للحاكم أنا سأسدد ما عليه . . أى سيدفع عنه فدية ، ولا يتم ذلك إلا اذا فسدت الشفاعة .

فإذا كانت المسألة وفى يوم القيامة ومع الله سبحانه وتعالى . . يأتى إنسان صالح ليشفع عند الله تبارك وتعالى لإنسان أسرف على نفسه . فلا بد أن يكون هذا الإنسان المشفع من الصالحين حتى تقبل شفاعته عند الحق جل جلاله . واقرأ قوله سبحانه :

﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الانبياء)

والانسان الصالح يحاول ان يشفع لمن أسرف على نفسه فلا تقبل شفاعته ولا يؤخذ منه عدل ولا يسمح لها بأى مساومة أخرى . اذن لا يتكلم عن العدل فى الجزاء إلا اذا فشلت الشفاعة .

هنا الضمير يعود الى النفس الجازية . أى التى تتقدم للشفاعة عند الله . فيقول الحق سبحانه وتعالى : « لا يقبل منها شفاعة » فلا يقبل منها أى مساومة أخرى . ويقول سبحانه : « ولا يؤخذ منها عدل » . وهذا ترتيب طبيعى للاحداث .

فى الآية الثانية يتحدث الله تبارك وتعالى عن النفس المجزى عنها قبل ان تستشفع بغيرها وتطلب منه ان يشفع لها . لابد ان تكون قد ضاقت حيلها وعزت عليها الأسباب . فيضطر ان يذهب لغيره . وفى هذا اعتراف بعجزه . فيقول يارب ماذا أفعل حتى أكفر عن ذنوبى فلا يقبل منه . فيذهب الى من تقبل منهم الشفاعة فلا تقبل شفاعتهم .

واذا أردنا ان نضرب لذلك مثلا من القرآن الكريم فاقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة السجدة)

هؤلاء هم الذين يطلبون العدل من الله . بأن يعيدهم الى الدنيا ليكفروا عن سيئاتهم . ويعملوا عملا صالحا ينجيهم من العذاب . ذلك ان الحسنات يذهبن السيئات . .

فماذا كان رد الحق سبحانه وتعالى عليهم . قال جل جلاله :

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة السجدة)

فهم عرضوا ان يكفروا عن سيئاتهم . بأن طلبوا العودة الى الدنيا ليعملوا صالحا . فلم يقبل الله سبحانه وتعالى منهم هذا العرض . اقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

لقد طلب هؤلاء الشفاعة أولا ولم تقبل . فدخلوا فى حد آخر وهو العدل فلم يؤخذ مصداقا لقوله تعالى : « لا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل » . . وهكذا نرى الاختلاف فى الآيتين . فليس هناك تكرار فى القرآن الكريم . .

ولكن الآية التى نحن بصددها تتعلق بالنفس الجازية . أو التى تريد أن تشفع لمن أسرف على نفسه : « فلا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل » . والآية الثانية : « لا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة » . أى ان الضمير هنا عائد على النفس المجزى عنها . فهى تقدم العدل أولا : « ارجعنا نعمل صالحا » فلا يقبل منها ، فتبحث عن شفعاء فلا تجد ولا تنفعها شفاعة .

وهذه الآيات التى أوردناها من القرآن الكريم كلها تتعلق بيوم القيامة . على ان هناك مثلا آخر فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

والآية الثانية فى قوله سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾

(سورة الاسراء)

يقول بعض الناس ان « نرزقكم » فى الآية الأولى « ونرزقهم » فى الآية الثانية من جمال الاسلوب . نقول لا . قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم من املاق » أى من فقر موجود . ومادام الفقر موجودا فالانسان لا يريد أولادا ليزداد فقره . ولذلك قال له الحق سبحانه وتعالى : « نحن نرزقكم واياهم » . أى ان مجىء الأولاد لن يزيدكم فقرا . لأن لكم رزقكم ولهم رزقهم . وليس معنى ان لهم رزقهم ان ذلك سينقص من رزقكم . فللأب رزق وللولد رزق . أما فى الآية الثانية : « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق » فكأن الفقر غير موجود . ولكنه يخشى ان رزق بأولاد يأته الفقر . يقول له الحق : « نحن نرزقهم واياكم » . أى ان رزقهم سيأتيهم قبل رزقكم .

فعندما تقرأ قول الله سبحانه وتعالى : « اتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا » مكررة فى الآيتين لا تظن ان هذا تكرار . لأن احداهما ختامها : « لا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل » . والثانية : « لا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة » . فالضمير مختلف فى الحالتين . مرة يرجع الى النفس الجازية فقدم الشفاعة وأخر العدل . ولكن فى النفس المجزى عنها يتقدم العدل وبعد ذلك الشفاعة .
الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ٣٣ سورة لقمان)

أى ان الانسان لا يمكن ان يجزى عن انسان مهما بلغت قرابته . . لا يجزى الولد عن أمه أو أبيه . أو يجزى الوالد عن أولاده . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة عبس)

وقول الحق سبحانه وتعالى : « لا يقبل منها عدل » : « لا يؤخذ منها عدل » . العدل هو المقابل . كأن يقول المسرف على نفسه يارب فعلت كذا وأسرفت على نفسى فأعدنى الى الدنيا أعمل صالحا . وكلمة العدل مرة تأتى بكسر العين وهى مقابل الشىء من جنسه . أى ان يعدل القماش قماش مثله ويعدل الذهب ذهب مثله . وعدل بفتح العين مقابل الشىء ولكن من غير جنسه . والعدل معناه الحق والعدل لا يكون إلا بين خصمين . ومعناه الانصاف ومعناه الحق . والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير . وانك لا تتحيز لجهة على حساب جهة أخرى . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان يجلس مع أصحابه يوزع نظره الى كل الجالسين .. حتى لا يقال انه مهتم بواحد منهم عن الآخر .

ولابد ان نعرف ما هى النفس . كلمة النفس اذا وردت فى القرآن الكريم . فافهم ان لها علاقة بالروح . حينما تتصل الروح بالمادة وتعطيها الحياة توجد النفس . المادة وحدها قبل ان تتصل بها الروح تكون مقهورة ومنقادة مسبحة لله . فلا تقل الحياة الروحية والحياة المادية . لان الروح مسبحة والمادة مسبحة . ولكن عندما تلتقى الروح بالمادة وتبدأ الحياة وتتحرك الشهوات يبدأ الخلل . والموت يترتب عليه خروج الروح من الجسد . الروح تذهب الى عالمها التسخيرى . والمادة تذهب الى عالمها التسخيرى . وذلك يجعلنا نفهم قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة النور)

لماذا تشهد ؟ لانها لم تعد مسخرة للانسان تتبع أوامره فى الطاعة والمعصية . فحواسك مسخرة لك بأمر الله فى الحياة الدنيا وهى مسبحة وعابدة . فاذا أطاعتك فى معصية فانها تلعنك لانك أجبرتها على المعصية فتأتى يوم القيامة وتشهد عليك . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾

(سورة الشمس)

ولقد شاع عند الناس لفظ الحياة المادية والحياة الروحية . لان الحياة الروحية تختلف عن الروح التى فى جسدك . وهى تنطبق على الملائكة مصداقا لقوله تعالى :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ ﴾

(سورة الشعراء)

وقوله جل جلاله :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

هذه هى الروح التى فيها النقاء والصفاء . وقوله تعالى : « ولا هم ينصرون » . أى ان الله سبحانه وتعالى اذا اقضى عليهم العذاب لا يستطيع أحد نصرهم أو وقف عذابهم . لا يمكن ان يحدث هذا . لان الأمر كله لله .

